

الزمن الجديد.. الماضي الحاضر أو الحاضر الماضي

حان الوقت لنكتب عن ماضينا القريب



الزمن يتغير نهائياً

عن الإسلام السياسي و"الربيع العربي". حان الأوان أن نكتب عن ماضينا القريب. ربما التوصيف الأدق هو ماضي الحاضر، أو الحاضر الماضي. سنترك لشخص أكفأ باللغة اختبار المفردة المناسبة. لكن نحن في أشد الحاجة إلى أن يواكب الفكر والثقافة ما يحدث اليوم وأن يخرج باستنتاج أعمق من أن تكون انطباعة بسيطة أو في بعض الأحيان ساذجة. هذه فرصة حقيقية للمثقفين ليست لديهم أي أسباب كي يضيعونها.

ماذا ينتظر بلده وقبوله بحلول أقل من الوسط. نولد حضرا كله يصبح ماضيا بائر فوري. تنام وتصبح على ثورة تغيير، في كل أنحاء العالم، ولكن أيضا في عالمنا الذي اعتاد الهزات السياسية ولكنه متمرس اجتماعيا ونفسيا. تغير الآن كل شيء، وبسرعة. على مثل هذه الخلفيات يأتي دور المثقف الحقيقي. هذا مادة خام تحتاج الاستغلال عليها، ومواكبتها. كتبنا كثيرا

السريع. فكرة التوفير لدى الشركات. تقبل الموظفين العمل بطريقة جماعية عن طريق التطبيقات مثل سكايب وزووم. تقليل الاعتماد على النقل والتنقل البعيد والقريب. المجيء بترامب وشعبوية السياسة وإرجاعها إلى حيث ينتميان بعد أن أحدثا الهزة المطلوبة لدى السياسيين الكلاسيكيين. بريكست مع تجربة 48 ساعة قطعية أوروبية مع بريطانيا بحجة كوفيد - 19 ساعدت في تهذيب سلوك يوريس جونسون ومعرفته

مختلفا. تم نسف منظومات عاشت معنا لعقود، بل بعضها لقرون، بسبب طبيعة التغيرات. خذ مثلا المكاتب في المدن. الناس تعودت على العمل من بيوتها. الإنترنت وتقنيات حماية الاتصالات وتشفيرها ألغت الفارق. حدث هذا قبل كوفيد - 19، لكنه تسارع جدا الآن. التسوق اليومي، التسوق الشخصي من ملابس وحاجيات. العمل ضمن مقاييس واضحة مثل مقياس البنطلون ولونه والقدرة على إرجاعه بالبريد

في الثمانينات بدأ تشكلي الشخصي من حيث الوعي بما حولي. كنت أرى الستينات مثلا من فئة "الدهر"، بعيدة زمنيا وماضي من الخمسينات وما قبلها كانت تبدو أثرية. لكن مع تقدم العمر والتجربة، صرت أشاهد الثمانينات بعين الألفية فلا أجد أن عشرين عاما تمر بهذا التباعد الزمني.

صحيح أننا شهدنا حروباً وقفزات تقنية مذهلة وصعوداً لتيارات سياسية مختلفة وانتهاءً لإمبراطوريات عالمية سياسية واقتصادية، لكن كان كل شيء يأخذ وقته. الانهيار السوفييتي مثلا، كان واضحا للعيان منذ مطلع الثمانينات. الولايات المتحدة كانت تقرب من ذروتها. حرب العراق كانت مسالة وقت. الإسلاميون قادمون. مركز النقل الصناعي والتجاري والمالي يتحرك نحو الشرق الأقصى.

لكن العقد الأخير شيء آخر. بين عامي 2010 - 2020 كان العالم صار يتحرك على وقع تناوله للمنشطات سنثرويد. الأزمات الاقتصادية تتسارع بشكل كبير. "الربيع العربي" نسف انظمة ظلت تعتقد أنها راسخة. دول ثرية بالريع النفطي تتصرف بارتباك المفلس. المشروع الوطني البشري في عالمنا العربي تحول إلى مشروع "كيف تلقى بنفسك في البحر المتوسط لتصل إلى أوروبا". إخوان ثم قاعدة ثم داعش. إيران في كل مكان.

اختفت جراءة السياسيين وحل محلها استرضاء للشبكات الاجتماعية وما يدور فيها من قال وقيل، في الغرب كما في عالمنا. كل واحد منا لديه قائمة العد الخاصة به لما يرصده من تغيرات كبرى وصغرى.

الماضي القريب

الماضي مرتبط بفكرنا مع التغيير. ولا فلسفة بالأمر حين نعيد التفكير بأنه ماض لأنه "بعيد" أو "بعيد نسبياً". لكن العقد الماضي أنتج ماضيا جديدا من نوع آخر. اجلس الآن وأنت على أبواب العقد الجديد والتفت إلى العقد الماضي وستجد أن التغيير كان مذهلا. الماضي قريب جدا.

الماضي بيننا تقريبا لأننا نحس بالتغيرات كل يوم. اسأل أي شخص تعرفه، سيقول لك إن الشهر الماضي كان

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

لا أعرف إن كان مثقفنا العربي، ابن اليوم، محظوظا أم منكوبا. كإنسان عادي من ضمن بشر يعيشون الضربات المتلاحقة الاقتصادية والسياسية ومؤخرا الصحية، يبدو مثله مثل غيره أقرب إلى النكبة منه إلى الحظ حينما التفت يرى مضيقا خانقا فيه الكثير من العثرات ولا يكاد يميز الطريق فيه من شدة الظلام أو اندعام الضوء في نهاية النفق.

نحن في أشد الحاجة إلى أن يواكب الفكر والثقافة ما يحدث اليوم، وأن يخرجوا باستنتاج أعمق من الانطباعة

الأزمات الاقتصادية تتزايد. الاختناقات السياسية أضادت السلفية الدينية لدكتاتوريات قديمة ومستحدثة. ثم جاء فايروس كورونا: حجر نفسي واجتماعي ومخاطر صحية لا أحد يعرف إن كنا سنخرج منها أو من أمثالها في القريب.

التغير السريع

لكن المثقف الحقيقي من طينة أخرى. هنا الحديث عن مثقف عربي حقيقي وليس بصمة غربية من الاستعارات والنقل والترجمة التي وسمت أعمال بعض مدعي الثقافة في مشهدين العربي.

أمثال هؤلاء الآن على الرف بعد انتشار الوعي باللغة الإنجليزية وبمساحة التغطية الإضائية عبر الإنترنت. ثم هناك "كارثة" تطاردهم مع تطور ترجمة غوغل الآلية بحكم تقدمها اليومي بعد تبنيها تقنية "التعلم العميق" تقرا لك المواضيع بالفرنسية والألمانية والإسبانية بالعربية أفضل من ترجمة محترفين. ما يتعثر بالعربية تقرأه بالإنجليزية.

إذا كنا نريد ربط الفلسفة بالحياة فلنعد إلى سقراط ونثر عليه

حسب الأحكام المعروفة؛ وسبق لي إنني لا أفعل بهذا سوى الإساءة إلى نفسي، خاصة وأنتي مؤهل حسب رأيهم للانخراط في محاوراته، إذ تبين له أن جوباني هو: إن هذه الأشياء الصغيرة من غداء وأمكنته واستجمام، أي مجمل دقائق الولوج بالذات، فهي في كل الأحوال أهم من كل ما ظل إلى حد الآن يؤخذ على أنه مهم. من هنا ينبغي إعادة المنهج.

هكذا كان نيتشه يرى في حالة سقراط نوعا من التفكير في تخفيض قيمة الحياة رغم الإهتمام الظاهر بالحياة في محاوراته، إذ تبين له أن سقراط له جانبان متناقضان: واحد ظاهري يعلن فيه اهتمامه بالحياة، وآخر خفي وأعمق نجده فيه يحتقر الحياة ويمجد العقل. نموذج يهتم بالأشياء البعيدة: كالنفس وما بعد الموت، إلخ.

خلفا للفيلسوف العقلاني الأخلاقي الذي جسده سقراط، اقترح نيتشه قلب المعادلة وتغيير المنظور الذي ظلت الفلسفة التقليدية ترهننا داخله؛ فبدلا من الحديث عن المثل والمهات، أصبح التفلسف متعلقا بكل لحظة من اللحظات الحميمية التي تهم الإنسان في كينونته وحياته الفعلية. ولعل هذا التماهيل الجديد للحياة هو ما يبعث قلبا جزريا للمبتدئين التي وطن لها الفلاسفة في تاريخ الفلسفة. إنه نقد للفلسفات التي لم تنصت للحياة، وللفلاسفة العقلانيين الذين أنكروا الحياة واستبدلوا بالعالم الذهني.

إعادة النظر في قناعاتهم وأفكارهم المزعومة. ولهذا، يعتبر ما أفاد به الفلسفة في غاية الأهمية بالنسبة إلى تعليم الفلسفة انطلاقا من تناول الحياة الفعلية للمتعلمين. إن كون هذا الفيلسوف أول من تفلسف في أمور الحياة العادية (الصدقة، الحب، الشجاعة، العدالة، إلخ) يجعل من نمونجه الحوارية إطارا بيداغوجيا لتعليم التفلسف انطلاقا من ربط الفكر بالحياة الفعلية، فذلك، ليست الفلسفة مجرد ترف، كما يمكن أن يقال تجنيا، وإنما هي أساسية لربط الحياة اليومية للفرد بالفضائل العقلية والحكم الأخلاقية، ومن هنا تكون ضرورة للمتعلم لا في دراسته فقط، وإنما في حياته كلها؛ وهذا ما سوف يتضح في ما بعد لدى نيتشه الرافض للعقلانية السقراطية.

عاد نيتشه في هذه المسألة إلى سقراط الذي جعل الحياة لا تساوي شيئا بقول الماثور «الحياة ليست سوى مرض طويل». ولقد رفض هذا الحكم، متهما الفيلسوف اليوناني بأنه عليل الصحة لا يحق له إصدار الحكم على الحياة لأنه متعب ومرضى، يعاني تشوها فسيولوجيا يجبره على اتخاذ موقف سلبي تجاه الحياة. كان نيتشه يقول «قد بسالنني سائل لم الكلام عن هذه الأشياء الصغيرة والتأفة

أفضل. وهذه الحكمة هي ما سوف تطوره المدارس الفلسفية الثلاث الكبرى في العصور القديمة (الأيبيقورية، الرواقية، والكلبية)، لتجعل من الفلسفة تمارين وأساليب عيش لأجل تحقيق حياة أفضل. جعل رواد هذه المدارس الأخلاقية ممارسة الفلسفة تمرينا روحيا لخلق الوئام بين الفكر والجسد، بحيث يسمح للإنسان أن يعيش بسلام مع ذاته، رغم إدراكه بأن الحياة قصيرة وأن زمنها غير مؤكد.

كان سقراط رجل الشارع الذي يجاور الجميع دون تمييز، حيث يجوب الساحات العمومية وأسواق أثينا لمحاوره الحرفيين والشعراء والبلغاء، دون أن يدعي قط امتلاك الحقيقة، وإنما يتساءل حتى فحسب، حتى يدفع المحاورين إلى مساعلة ذاتهم، بالتالي

أدركه كل من مونتاني، كيركجارد، نيتشه، بيري أندو، إلخ. الانفصال عن السلطة والثروة، التحكم في العواطف والتربيز على التأمل وممارسته، ورعاية الذات وترويض الجسد والغرائز، إلخ؛ كلها تمارين فلسفية روحية قام سقراط بتربيتها في بنية الفكر الفلسفي. ربط الفلسفة بالحياة جعل رسالة الأمل في الفلسفة السقراطية تكشف عن أن لدينا القدرة على شفاء أنفسنا. يمكننا أن نشك في أفكارنا ونقرّر تغييرها متى امتلكتنا القدرة على التفلسف، وهذا الأمر كذلك هو ما سيغير مشاعرنا. لسنا بحاجة إلى كاهن أو محلل نفسي أو طبيب نفسي ليعيدنا بالفداء أو الشفاء، وإنما فقط إلى تفلسف حقيقي. "كل واحد منا أكثر ثراء مما يعتقد: لكننا مديونون على الاقتراض والنسول...". يكتب مونتاني، يعلمنا سقراط كيف نفكر، وكيف نعتز على السلام الداخلي فينا، إنه بهذا المعنى قد أنزل الفلسفة من السماء إلى العالم، من التفكير في الكوسموس إلى التفكير في النفس. كان هذا مضمون شعره "أعرف نفسك بنفسك".

يبدو سقراط كما لو كان طبييا لتلاميذه، دباوي نفوسهم بنور العقل، جاعلا الحقيقة هدف محاوراته. البحث عن الفضيلة عبر المعرفة مهما كان الثمن، العيش بالفلسفة يعني حياة صافية، معتدلة، حذرة وواعية وخالية من الغرائز. لقد جعل الفلسفة نهجا لتحسين الحياة عبر تدريب العقل على كيفية الوصول إلى الحكمة. كانت فلسفته نظاما يهدف إلى مساعدة الإنسان على عيش الحياة بشكل

اعتبار المعرفة فضيلة والجهل رذيلة مسألة أساسية في طريقة المحاوره لديه، إذ لا أحد يفعل الشر عدا، بل لسيادة موقف الجهل الذي ينبغي طرده من النفس. فضد الرأي الغالب، دافع سقراط عن فكرة أن "الناس لا يختارون الشر لأنفسهم، ولا يفعلون دائما ما يودون فعله وفقا للفضيلة إلا لإتضاعوا واعترفوا، مثله، بجهلهم المسبق. فضيلة التواضع هذه هي بداية التفلسف، بعدها يلزم نهج سبيل الفضيلة الذي هو العلم والمعرفة".

رسالة الأمل في الفلسفة السقراطية تكشف بأن لدينا القدرة على شفاء أنفسنا ويمكننا أن نشك في أفكارنا ونغيرها

كرس سقراط حياته لهذا المبدأ، فجعل فكره اعترافا صريحا بكيفية عيشه للحياة. حقا يبدو في هذه المسألة وسيطا بين المعيار المثالي والواقع الإنساني، إنه الشخص الذي كانت فكرة الاعتدال تثيره، أي فكرة الوسط والتوازن. في حالة سقراط هذه، يتوقع المرء أن يرى الشخصية المنسجمة والمعتدلة، عن طريق الاحتفاظ بالفروق الدقيقة بين السمات الإلهية والصفات البشرية. شخصية سقراط كانت محيرة وغامضة ومقلقة. لهذا كان له التأثير الكبير في التقاليد الغربية. هذا ما

الحسين أجدوش

سقراط بالنسبة إلى الحكمة الفلسفية هو بمثابة الأب الروحي لتاريخها، وذلك حتى وإن تفلسف من سبقه؛ فهو من قام بتحويل وجهة الفلسفة إلى بحث شروط حياة جيدة أخلاقيا وسياسيا. حقق للفلسفة ولادتها واعتبر مؤسسها. أنهم بعدم الإيمان بالله مدينة أثينا وإدخال آلهة جديدة وإفساد الشباب، وحكم عليه بالإعدام.

قدم المؤلف الهزلي أريستوفان صورة سلبية عنه في مسرحيته "السحب" (في عام 423 قبل الميلاد)، فاعتبره مفسد الشباب، وكان للمسورة التي رسمها عنه خصومه تأثير مدمر عليه. لكن، صورة تلميذه أفلاطون بقيت أكثر إشراقا وإيجابية، فقد صوره كاحسن حكمين في أثينا كما تنبأت عرافة معبد "دلفي" بذلك. اعترف سقراط أنه مدين بهذا الشرف لإعترافه الدائم بجهله المعرفي. مسلحا بهذه الحكمة بالذات، شرع سقراط في دحض الآراء الكاذبة التي يروج لها ادعياء المعرفة "السفسطائيون".

كان اتساق مواقف سقراط مؤشرا على معرفته الجيدة عكس خصومه، لكن نظائره بالجهل وإعلان رغبته في التعلم شكلا لغزا محاورية. لكن، كيف يمكن اتخاذ طريقته هذه تمرينا في الفلسفة؟

لم يكن يفصل سقراط بين نمط عيشه وفكره الفلسفي، بل كانت عنده الفلسفة مرتبطة باليومي أشد الارتباط. كان التفلسف لديه تمرينا روحيا ينطوي على مخاطرة ما دام ليس سهلا ودائما التكن برود المتحاور.

